الفصل الثالث

خلق الأرض

المبحث الأول: آيات مختارة في خلق الجبال وخاصية التربة في الإنبات.

بعد أن أفردتُ الفصل الأول لخلق السماء، سيكون هذا الفصل لخلق الأرض؛ علماً بأنهما قد ذكرا في القرآن الكريم متلازمين فما ذكرت السماء إلا وذكرت معها الأرض، إلا أن الدراسة اقتضت الفصل لإشباع الدراسة حول كل منهما مع ما يلازمهما من توابع، وأرى أن أبدأ بما ورد في سورة فصلت عن خلق الأرض وما حوت في قوله تعالى ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ ٩-١١ وقد ورد في تفسير هذه الآيات : "ينكر الله تعالى ويعجب من كفر

الكافرين به الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه ويبذلون لهم التقديس والقرابين والخضوع والعبادة ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها رواسي من فوقها ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار فكمل خلقها ودحيها وإخراج أقواتها وتوابعها ﴿**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ**﴾ عن ذلك فلا ينبّئك مثل خبير.. ومع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة ولكن مع أنه قدير فهو حكيم رفيق فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية مع قوله في "النازعات" لما ذكر خلق السموات قال: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ يظهر منها التعارض مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف، والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف أن خلق الأرض وصورتها متقدم عن خلق السموات كما هنا، ودحى الأرض بأن ﴿**أخرج منها ماءها**

ومرعاها والجبال أرساها﴾ متأخر عن خلق السموات" نقلاً عن تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. وكل من هذه الحالات مخلوق في يومين، وحسب تسلسل الأيام فإن الأرض خلقت يومي الأحد والاثنين، ثم السموات يومي الثلاثاء والأربعاء أي خلق الأرض وصورتها ثم السموات ثم تقدير ما في الأرض من أنفس وأقوات وجبال في يومي الخميس والجمعة، وقد ذكر في الأحاديث الصحيحة أن آدم خلق يوم الجمعة ومات يوم الجمعة وستقوم الساعة يوم الجمعة.

البلاغة:

- الإيضاح بعدم الإبهام، وذلك لدفع التوهم ﴿**خلق الأرض في يومين**﴾ إلى أن قال ﴿**وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام**﴾ فإن من جملة هذه الأيام الأربعة اليومين المذكورين.
- الاستعارة الحسية، حيث استعار للجبال كلمة (رواسي) التي تثبّتُ الأرض وتثقّلها وفي تنكيرها تفيد العموم، أي كل جبل يعد من الرواسي.

- التورية، في ﴿**استوى إلى السماء**﴾ على مذهب أهل التأويل للخروج من التشبيه بزعمهم.
- الطباق، في ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾.
- الإرصاد، في توقع الفاصلة القرآنية ﴿**طائعين**﴾ وهذا من تمام الانقياد لله.
- إضفاء الحياة على السماء والأرض في الخطاب ثم ردهما بالخضوع والإذعان ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ**﴾ الإسراء- ٤٤.
- الالتفات، في ﴿**أتكفرون**﴾ و ﴿**خلق الأرض**﴾.
- الإيجاز في ﴿**أتينا طائعين**﴾ وذلك حسب ما استقر عليه الوضع النهائي، لأن جواب ائتيا طوعاً أو كرهاً: "نمتثل أمرك يا رب فنأتي طائعين فأتوا "وهذا الاختصار لسرعة تلبية الأمر حيث لا يحتاج أمر الله إلى التردد أو التفكير وإنما تلبية الأمر حالاً فكان بيان مطاوعة السماء والأرض لأمر الله.

obeikandl.com

*﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الرعد ٤١- قال في تفسير الفتح القدير: الخطاب لأهل مكة والاستفهام للإنكار، أي: أو لم ينظروا ﴿أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: نأتي أرض الكفر كمكة- قبل الفتح- ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً.. وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: "ذهاب العلماء" وفي رواية ابن عباس قال: "موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها "وفي قوله ﴿وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده.

هذا مختصر أقوال أهل التفسير لكنّ العلم الحديث له رأي لطيف في إنقاص الأرض من أطرافها، ورد في كتاب من الإعجاز العلمي في القرآن: "وأطراف الشيء هي أبعد أجزائه عن وسطه أو مركزه ، وبالنسبـــــة

لكوكب الأرض فإن أطرافه تتمثل في ناحيتين هما:

أ- القمم والهامات العليا للجبال، وهي التي تمثل الأطراف الرأسية لقشرة الأرض، وهذه الأطراف العليا تتناقص في الارتفاع تبعاً لتآكلها ونحتها المستمر بفعل عوامل التجوية والتعرية.

ب- أطراف الكرة الأرضية عند القطبين، وتبعاً لتفلطح منطقتي القطبين أدى ذلك إلى تناقص طول القطر القطبي عن طول القطر الاستوائي، وهذا الأمر له أثره في اختلاف زاوية سقوط الأشعة الشمسية على سطح الكرة الأرضية واختلاف الليل والنهار طولاً وحرارة على أجزاء سطح الأرض. ص ٣٢٦- أقول: التفاتة جيدة للعلم الحديث وهذا من الإعجاز.

البلاغة:

- التورية في نأتي الأرض- على مذهب أهل التأويل- وهي من المجاز: بمعنى يأتي أمر الله.
- الالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ﴿**نأتي**

الأرض﴾ و ﴿**الله يحكم**﴾ .

- التوجيه إلى عظمة الخالق وقدرته وتصرفه في ملكه بما يشاء.
- الاستفهام الإنكاري وهو تقرير ما حدث، وفيه الحث والتوجيه لإعمال الفكر بدل الجمود.
- العنوان، وهو التوجيه إلى ما في الآية من علوم، وهي هنا علوم الأرض وشكلها.

* وفي سورة الملك ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ ١٥- قال في فتح القدير: "أي سهلة لينة تستقرون عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها، والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك.. (**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا**﴾ طرقها ومسالكها وأطرافها وجوانبها.

وللعلم الحديث التفاتة طريفة لمعنى "ذلول" شبهها بالناقة الذلول التي لا تستعصي على راكبها بل تنقله في أسفاره بيسر وسهولة وهذا دليل أن الإنسان راكب

على الأرض لأنها كالمطية وهو دليل على أن الأرض سابحة تجري بركابها.

البلاغة:

- تشبيه بليغ ﴿**الأرض ذلولاً**﴾ ويجوز: استعارة تصريحية لبيان الانقياد للإنسان.
- الالتفات في (جعل) الماضي و (فامشوا، كلوا) الأمر.
- الاكتفاء، في (من رزقه) والرزق في الأرض كثير فاكتفى به عن التفصيل.
- قدرة الله تعالى في الصنع وتذليل الصعب لأجل الإنسان.
- الحذف، حيث يفهم من عبارة ﴿**وإليه النشور**﴾ أن هناك كلاماً محذوفاً تقدير فاشكر الله على ما أعطاك أيها الإنسان لأن المرجع إليه.

المبحث الثاني: آيات مختارة عن تضاريس الأرض جبالها وأنهارها ونباتها:

obeikandi.com

* قال الله تعالى في سورة ق:﴿**والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج**﴾ ٧- قال في تفسير فتح القدير: "مددناها: أي بسطناها (وألقينا فيها رواسي) أي جبالاً ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج) أي من كل صنف حسن".

* وفي سورة الرعد تفصيل أكثر، قال الله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾٣-٤- قال في تفسير فتح القدير : "وهو الذي مدَّ الأرض" قال الفراء: بسطها طولاً وعرضاً ، وقال الأصم: إن المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كرويتها في نفسها لتباعد أطرافها ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ أي جبالاً ثوابت، واحدها رأسية لأن الأرض ترسو بها أي : تثبت.. ﴿**وأنهاراً**﴾ أي

مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق.. ﴿**ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين**﴾ الزوج يطلق على الاثنين، وعلى الواحد المزاوج لآخر، والمراد هنا بالزوج الواحد، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين.. أي جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما في اللونية، كالبياض والسواد، أو في الطعمية، كالحلو والحامض ونحوهما..قال الفراء: يعني بالزوجين الذكر والأنثى. والأول أولى". أقول: بل قول الفراء هو الأولى لأن علم النبات اكتشف هذا.

((﴿**وفي الأرض قطع متجاورات**﴾ قيل: وفي الكلام حذف، أي: قطع متجاورات وغير متجاورات.. قيل: المتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر، وقيل: المعنى متجاورات متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً، والبعض طيباً والبعض غير

طيب.. ﴿**وجنات من أعناب**﴾ الجنات: البساتين، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل- كما جرت عادة المزارعين-.. ﴿**صنوان وغير صنوان**﴾ صنوان: جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً ثم يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل.. قال ابن الإعرابي: الصنو: المِثْل.. قال في الكشاف.. "والصنوان جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد.." ﴿**يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل**﴾.. فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة والماء الذي تسقى به واحداً، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه ﴿**إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾)) السابق.

البلاغة:

- استعارة، حيث استعار كلمة (رواسي) للجبال لتدل على إرساء الأرض وتثبيتها كما هي حال المرساة للسفن.
- الاختزال، وذلك بحذف مفعول أنبتنا، وما علـــــى

المرء إلا أن يتخيل كل أصناف النبات التي يعرفها أنها من كل زوج بهيج.

- الاستعارة في ﴿**مد الأرض**﴾ فالمد بمعنى الزيادة، عبر به عن البسط طولاً وعرضاً.
- الاكتفاء بذكر الرواسي والأنهار عن بقية ما فيها من أشكال الأرض.
- الاكتفاء بذكر ﴿**ومن كل الثمرات**﴾ عن التفصيل أو ذكره كافة الأنواع.
- دفع التوهم في ﴿**زوجين اثنين**﴾ أي: بمعنى زوج فأكد باثنين كيلا يظن ظان أن زوجين تعني أربعة، فالزوجين يطلق هنا على الذكر والأنثى.
- استعارة في ﴿**يغشي الليل والنهار**﴾ حيث استعار لليل لباساً يغشي به النهار فيظلم.
- الاختزال في ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات**﴾ أي: وغير متجاورات.
- تغليب الأعم في ﴿**وجنات من أعناب وزرع نخيل**﴾

obeikandl.com

حالة بلاد العرب في أغلب واحاتها وذلك لفهم المثل للمخاطبين الذين نزل القرآن بديارهم ويدخل تحت العام كل القطع التي فيها ثمار غير التي ذكرت وكذلك الزروع.

- الالتفات في (مد، وجعل) ثم (يغشي) ثم (يتفكرون) فانتقل من الماضي إلى المضارع والضمير "هو" إلى ضمير واو الجماعة التي تعني "هم"، وفي الآية التالية من المضارع المبني للمجهول (يسقى) إلى المضارع المتكلم (ونفضل) ثم إلى (يعقلون).
- الجناس في ﴿**صنوان وغير صنوان**﴾.
- مناسبة الفاصلة في كل من (يتفكرون) فالأمر في مد الأرض وإقامة الرواسي وجريان الأنهار والليل يغشي النهار تحتاج إلى إعمال الفكر وتصور ذلك في المخيلة، وكذلك في المحسوس مما يشاهد في الزراعة والثمار والطعوم يحتاج الأمر إلى حسن العقل ليرى بإنصاف هذه الفوارق ويرجعها إلى قدرة الله.

obeikandl.com

- التعريض، فقوله: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.. وكذلك يتفكرون**﴾ تعريض بمن لا يفعل ذلك فهو لا يملك العقل للتفكير.

* وفي سورة فاطر، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ ٢٧ – قال في تفسير الكشاف: "ألوانها: أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها، والجدد: الخط والطرائق.. ويقال: جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه (غرابيب) معطوف على بيض أو جدد، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غربيب، وعن عكرمة: هي الجبال الطوال السود، قلت: الغربيب تأكيد للأسود، يقال: أسود غربيب، وأسود حلكوك: وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه".

البلاغة:

- الاكتفاء بذكر "ثمرات" عن ذكر دورة الحياة النباتية من البذرة وحتى الثمرة، وكذلك في ﴿**مختلف ألوانها**﴾ عن تعداد الألوان أو أصناف الفواكه كما ورد في التفسير.
- الإيجاز، حيث حذف "ذو" أي: ذو جدد، أو: منها جدد بيض ومنها جدد حمر مختلف ألوانها، ومنها غرابيب سود.
- الإطناب في وصف الجدد في الجبال حتى أتى على كل ألوانها.
- العنوان، وهو التوجيه إلى علم طبقات الأرض والجيولوجيا.
- الالتفات، في "أنزل" و "فأخرجنا" من الغائب إلى المتكلم.
- التدبيج وصحة التقسيم، وهو نوع من الطباق، فذكر

obeikandl.com

الألوان ما بين أبيض وأسود غربيب وأحمر وما بينهما، وهو أمر مشاهد في الجبال.

- المبالغة في (غرابيب سود) حيث بالغ في شدة السواد، وهذا من بديع القرآن.
- وعد السيوطي في الإتقان ﴿**وغرابيب سود**﴾ من التأكيد اللفظي وهو تكرار اللفظ بمرادفه من الإطناب.
- إظهار قدرة الله على الخلق والتكوين والإبداع.

* وفي سورة النمل، قال الله تعالى ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ ٦٠-٦١- قال في فتح القدير: "أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم..

﴿**وأنزل لكم من السماء ماء**﴾ أي: نوعاً من الماء وهو المطر ﴿**فأنبتنا به حدائق ذات بهجة**﴾ الحديقة: البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة، وقال قتادة وعكرمة: الحدائق: النخل.. والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ﴿**ما كان لكم أن تنبتوا شجرها**﴾ أي: ما كان للبشر ولا يتيهأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود ﴿**أإله مع الله**﴾ هل من معبود مع الله الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿**بل هم قوم يعدلون**﴾ يعدلون الله بغيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها، فقال: ﴿**أمَّن جعل الأرض قراراً**﴾القرار: المستقر، أي: دحاها وسواها بحيث يمكن الاستقرار عليها .. ﴿**وجعل خلالها أنهاراً**﴾ الخلال: الوسط (وجعل لها رواسي) أي: جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة والاهتزاز الدائم مثل المركب في الماء من دون مرساة. ﴿**وجعل بين البحرين حاجزاً**﴾ الحاجز: المانع، أي : جعل بين

البحرين من قدرته حاجزاً، والبحران هما العذب والمالح.. ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ توحيد ربهم وسلطان قدرته".

البلاغة:

- الالتفات، في ﴿**خلق السموات**﴾﴿**وأنزل لكم**﴾ من ضمير الغائب هو إلى ضمير المتكلم في ﴿**وأنبتنا**﴾.
- حسن الفاصلة، بعد الاستفهام الإنكاري والتوبيخ ختم بـــ ﴿**بل هم قوم يعدلون**﴾ وفيه تعريض بهم وتسفيه لحكمهم هذا بعد بيان القدرة الإلهية وما يفيض من الإحسان على عباده.
- العدول من الجمع إلى الإفراد لجمال المعنى ﴿**حدائق ذات بهجة**﴾ فلم يقل : ذوات.
- استعارة، حيث استعار السكون والقرار للأرض من أجل طلب الرزق والمعاش.
- الكناية، حيث كنى عن الرفاهية وهناءة العيش والاطمئنان بوجود الأنهار التي تؤمن الماء والجبال

التي تثبت الأرض وحاجز البحر الذي يزيد في الاطمئنان كي لا يطغى على اليابسة، أو أن يختلط الماء المالح بالماء العذب فيفسده .

- التعريض في ﴿**يعدلون**﴾ لا توجد لديهم مقارنة تقوم على صحة العقل وتبصّره.

* وفي سورة يس وصف لطبيعة الأرض وما فيها، قال الله تعالى ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ ٣٣-٣٦.

قال في فتح القدير: "ذكر الله سبحانه البرهان على التوحيد والحشر مع تعداد النعم.. فإنه أحيا الأرض بالنبات، وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها ويتغذون بها.. وتقديمه للحَبّ للدلالة على أنه معظم ما يؤكل وأكثر ما يقوم به المعاش، وجعل الله في الأرض جنات

من أنواع النخيل والعنب، وخصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار وأنفعها للعباد.. وفجر في الأرض بعضاً من العيون.. والمراد بالعيون عيون الماء.. ليأكلوا من ثمره- ثمر الجنات والنخيل- ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه .. ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها**﴾.. وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به، والأزواج: الأنواع والأصناف، لأن كل صنف مختلف الألوان والطعوم والأشكال ﴿**مما تنبت الأرض**﴾ بيان للأزواج، والمراد كل ما ينبت من الأشياء المذكورة ﴿**ومن أنفسهم**﴾ أي: خلق الأزواج من أنفسهم إشارة إلى الخلق الأول لآدم وحواء فكان الذكور والإناث ﴿**ومما لا يعلمون**﴾ من أصناف خلقها في البر والبحر والسماء والأرض".

البلاغـــــة:

- استعارة مكنية، حيث استعار للأرض الموت ثم الحياة تشبيهاً بذوات الأرواح.

- الإيجاز، في ﴿**وأخرجنا منها حباً**﴾ حيث أوجز فلم يذكر عملية الزراعة ومراحلها.
- التوشيح، في ﴿**وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون**﴾ وهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية.
- الطباق، الأرض الميتة أحييناها.
- المجاز العقلي، إحياء الأرض الميتة المراد القريب، والمراد البعيد القدرة على إحياء الموتى من البشر.
- استعارة تصريحية، حيث استعار للماء الذي ينبع من الأرض ﴿**العيون**﴾ بقرينة ﴿**فجرنا**﴾.
- الالتفات، في ﴿**ليأكلوا من ثمره**﴾ و ﴿**ما عملته أيديهم**﴾.
- حسن الفواصل المسجوعة في الآيات المذكورة.
- التقسيم، حيث استوفى ذكر الأزواج ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**﴾.
- الإطناب في الآيات المذكورة، حيث التفصيل فيما

خلق على هذه الأرض للناس.

- المجاز العقلي ، في ﴿**تنبت الأرض**﴾ حيث نسب الإنبات للأرض والحقيقة أن المنبت هو الله.
- الاكتفاء بذكر ﴿**ومن أنفسهم**﴾ عن ذكر خلق حواء من ضلع آدم.

* وفي سورة الزمر ورد عن مائها ما يلي، قال الله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾ ٢١- ومن هذه الآية يبدو أن العيون تختلف من حيث النشأة عن الينابيع، ففي العيون كان التفجير، وكذلك في خبر موسى ﴿**فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا**﴾ البقرة.. وفي العيون ﴿**فسلكناه**﴾ أي تسرب ماء المطر في أخاديد شعرية وصغيرة ثم تجمع في أخرى أكبر منها إلى أن خرج يتدفق من تل أو جبل، قال في فتح القدير: ﴿**فسلكه ينابيع في الأرض**﴾ أي: فأدخله وأسكنه فيها،

والينابيع: جمع ينبوع، من نبع الماء ينبع، والينبوع عين الماء.. والمعنى أدخل الماء النازل من السماء في الأرض وجعله فيها عيوناً جارية ﴿**ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه**﴾ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر، أو من بر وشعير وغيرهما.. ﴿**ثم يهيج**﴾ يقال: هاج النبت يهيج هيجاً إذا تم جفافه.. ﴿**فتراه مصفراً**﴾ بعد خضرته ونضارته وحسن رونقه.. ﴿**ثم يجعله حطاماً**﴾ أي: متفتتاً منكسراً ﴿**إنَّ في ذلك لعبرة لأولي الألباب**﴾ أي فيما تقدم ذِكْرُهُ هو تذكيرٌ لأهل العقول الصحيحة.. الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون ويعتبرون ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم. أ.هـ".

نلاحظ عدم التفريق بين العين والينبوع، حيث فسر هذا بهذا، ولعل الينابيع هي أكثر غزارة من العيون وذلك من المعنى لأن تشبيهها بالعين التي تدمع دليل تدفق الماء منها بمقدار أي تفيض وهي في بركتها قليلاً

قليلاً، ولهذا طلب الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم أن يفجر لهم ينبوعاً ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً**﴾ الإسراء ٩٠- فجمعوا بطلبهم بين التفجير الذي تكون نتيجته العين والينبوع الذي هو أقوى من العين.

ولذا فإن مياه الأنهار دائمة الجريان هي من الينابيع لا من العيون.

البلاغة:

- المجاز العقلي في تشبيه حياة الإنسان وانقضائها بحياة النبات وانقضائها، وإنما كان هذا التشبيه لأن دورة الحياة عند النبات قصيرة وهي مشاهدة في كل سنة وربما في كل فصل.
- الإطناب في الوصف في هذه الآية لتستوفي الغرض.
- بيان عظيم صنع الله وقدرته.
- استعارة مكنية، شبه الماء الذي ينفذ فـــي الأرض

بالسلك حين ينظم في حبات العقد، فهو يعرف طريقه في الأرض كما يعرف السلك طريقة في حبات العقد، إلى أن يخرج نبعاً.

- الاختصار في ﴿**زرعاً مختلفاً ألوانه**﴾ استغنى بذلك عن التفصيل من حيث النوع واللون.
- الالتفات في ﴿**أنزل، فسلكه**﴾ في الماضي ثم ﴿**يخرج به**﴾ و ﴿**ثم يهيج**﴾ و ﴿**ثم يجعله**﴾.
- التعريض، (﴿**ذكرى لأولي الألباب**﴾ فمن لم يلاحظ ذلك ويربط هذه الظواهر بقدرة الخالق فهو ليس من أولي الفهم والتفكر والتدبر.

المبحث الثالث: آيات مختارة في خلق الأنهار والبحار والعذوبة والملوحة وجريان السفن.

*وفي سورة النحل، قال الله تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ ١٤.

البلاغة :

- استعارة، في: وهو الذي سخر البحر، فجعله كالحيوان المسخر لخدمة الإنسان.
- مجاز عقلي، حيث قال: ﴿**لتأكلوا منه**﴾ فالأكل من حيوانات البحر، وفيها أيضاً إيجاز فاستغنى بـ (منه) عن ذكر أسمائه وحيتانه.
- الكناية، حيث كنى عن الحيتان والسمك باللحم الطري.
- وفيه العنوان، وهو لفت الانتباه للعلوم الدنيوية وهي هنا صناعة الحلي للزينة.
- الكناية، في (حلية تلبسونها) بدل اللؤلؤ والمرجان.
- الالتفات، من أفعال ﴿**لتأكلوا.. وتستخرجوا.. تلبسونها**﴾ إلى (وترى).
- كناية وإيجاز، في: ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ أي: كناية عن طلب الكسب والرزق فيه من صيد

obeikandl.com

الحيتان وغيرها من الحيوانات البحرية، وتستخرجوا منه اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك.

* وفي سورة الفرقان، قال الله تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً**﴾ ٥٣- المرج: الاضطراب والاختلاط، ومرجت الدابة إذا خليتها في المرعى، و ﴿**هذا عذب فرات**﴾ أي: شديد العذوبة، والفرات: الذي يفرت العطش ويقطعه ويكسره، و ﴿**هذا ملح أجاج**﴾ أي : شديد الملوحة، أو شديد الحرارة، أو شديد المرارة، والبرزخ: الحاجز، وحجراً محجوراً: يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، أو حداً فاصلاً فلا يعذب المالح بالعذب ولا يملح العذب بالمالح، ويقال: المراد من البحر العذب الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون، ومن البحر الأجاج البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض.

ومن الدراسات الحديثة نلخص القول بأن البحار العذبة هي مصبات الأنهار الكبيرة في البحار، وأن

كثافة المياه الحلوة أقل من كثافة المياه المالحة وعلى هذا تبقى المياه الحلوة في تلك الأماكن فوق المياه المالحة ولا تختلط فيها ويفصل بينهما البرزخ وهو حد فاصل بين الماءين ، وقيل أيضاً هناك على السواحل أسفل مياه البحر الضحلة توجد ينابيع تفور بالماء الحلو وتنطلق إلى السطح بفعل الفارق بين كثافة الماء الحلو وكثافة المالح، وذكر الجغرافيون بعض هذه الأماكن، مثل: مجموعة مياه الكوكبات حول جزر البحرين، ومنهما أيضاً يستخرج اللؤلؤ والمرجان، وكذلك المياه أمام ساحل رأس الخيمة، وأمام ساحل طرابلس منطقة رأس شكا، وفي خليج المكسيك، وفي البحر الأدرياتيكي.

البلاغة:

- التقسيم، في ﴿**مرج البحرين؛ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج**﴾.
- الطباق، في ﴿**عذب فرات، وملح أجاج**﴾، ويجوز المقابلة.
- الجناس الناقص في ﴿**حجراً محجوراً**﴾.

- مناسبة الفاصلة للفواصل السابقة والتالية.
- الفرائد في كلمة ﴿**برزخ**﴾ ولم يقل حاجزاً، وهذا من الفصاحة.
- المبالغة في الوصف ﴿**ملح أجاج**﴾و﴿**عذب فرات**﴾.
- بيان قدرة الله وعظيم ما خلق.

* وفي سورة لقمان ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ ٣١- ٣٢ والظلّة: ما أظل من شجر أو سحاب والجمع ظلال وظلل.

البلاغـــة:

- توكيد في ﴿**أن الفلك**﴾.
- المجاز في ﴿**تجري**﴾ فالجريان للماء.
- الالتفات في ﴿**تجري**﴾ و﴿**ليريكم**﴾.

- الإيجاز، في ﴿**بنعمة الله**﴾ حيث ذكر ما ترتب على قانون الطفو للسفن فوق الماء وهو إنعامه بهذا على الإنسان، لأنها تجري بأمر الله وفق ما جعل فيها من خاصية الطفو.
- الاختصار بآية الفلك عن بيان آياته الأخرى ﴿**ليريكم من آياته**﴾ للتوجيه إلى أهمية الفلك وحاجة الناس إليها في السفر البحري.
- استعارة في ﴿**غشيهم**﴾.
- تشبيه مؤكد ﴿**كالظلل**﴾.
- جناس ناقص في ﴿**مخلصين له الدين**﴾.
- السجع المرصع، في ﴿**صبار شكور**﴾ و ﴿**ختار كفور**﴾.
- وفيها أيضاً مناسبة رؤوس الآي، حيث الصبر على استيضاح آيات الله وتبينها ثم شكر المنعم على أنْ مَنّ عليه بالهداية، والجاحد لما يرى من

obeikandl.com

عظيم صنع الإله وقدرته هو الختار الكفور بهذه النعم.

- اللف والنشر في ﴿**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾.
- القصر، ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ والآيات كثيرة ومتنوعة.
- الالتفات ، **في** ﴿**نجاهم**﴾ و ﴿**وما يجحد**﴾.
- العنوان، وهو التوجيه إلى قانون الطفو، فالفلك تجري فوق الماء ولا تغرق.

obeikandl.com